منهج الإمام الشاطبي ـ رحمه الله ـ في تفعيل مبدأ الوسطية

بقلم
أ.د. سعاد سطحي ط/دكتوراه: مريم لعور
sotehisouad@yahoo.fr firasour@gmail.com
قسم الشريعة – كلية الشريعة والاقتصاد
جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية ـ قسنطينة

ملخص البحث

تتناول هذه الدراسة شخصية فذة من الشخصيات الإسلامية التي استضاءت الثقافة الإسلامية بنور شعاعها، وهي شخصية الإمام أبي إسحاق الشاطبي رحمه الله، هذا العالم الجليل الجهبذ الذي جمع بين المحافظة على الأصول والثوابت، والرؤية الواقعية السديدة للتعامل مع المتغيرات، من خلال الفهم المقاصدي لمبادئ الشريعة الإسلامية، التي تحوي أصولا رصينة تتجلى من خلالها مرونة الشريعة وشموليتها واستيعابها لحوادث الزمان ومتغيرات المكان في كل حين وآن،كما أنها تهدف إلى جلب مصالح العباد ودرء المفاسد عنهم في المعاش والمعاد.

وتعتبر الوسطية من المبادئ العامة في التشريع الإسلامي المعينة على فهم الإسلام فهما صحيحا وتنزيلها في الحياة الخاصة والعامة، كما تعدّ الوسطية من أهم المقاصد العامة المتعلقة بمنهج التشريع، لذلك جاءت هذه الدراسة لتربط بين منهج الإمام الشاطبي الذي يعتبر مؤسسا لعلم المقاصد وبين مبدأ الوسطية، وذلك من خلال بيان مفهومها وضوابطها وتأصيلها الشرعي، ثم بيان العلاقة الرابطة بين منهجه رحمه الله في تفعيل هذا المبدأ.

المقدمة:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

إن من نعم الله عز وجل على هذه الأمة، وتشريفه لها أن جعلها خير أمة أخرجت للناس جمعاء، وكانت هذه الخيرية مستمدة جذورها من كونها أمة وسطا، فجعل الوسطية من أهم مقومات ريادتها، ومن ثم فقد هيأ الله تعالى لها علماء فطناء يقومون بحراسة جانبها من الشتات، و هذا من بركة هذه الأمة التي يمنُّ الله – عزَّ وجلَّ عليها في كلِّ زمن بِمَن يبذلُ جهدَه في الحفاظ على مقوماتها ومبادئها التي تحافظ على شمولية هذه الشريعة وصلاحها في كل زمان ومكان.

كما أن القول بوسطية الإسلام، يشير حتما إلى سماحة الإسلام ويسره، وهذا أمر معلوم من الدين بالضرورة، ولا يحتاج إلى كبير عناء لبيانه والاستدلال عليه؛ إذ لا يشك مسلم واعٍ في أن أمة الإسلام هي الأمة الوسط،

وأن شريعتها جارية في التكليف كما يقول الإمام الشاطبي –رحمه الله–:"على الطريق الأوسط العدل الآخذ من الطرفين بقسط لا ميل فيه"[1]، وأن هذا الأمر لا يحتاج إلى كثير بيان ، وكيف يحتاج إلى بيان ما أوضحه الكريم المنان بقوله :"وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً"[2].

وعليه، فإن دراسة موضوع الوسطية يعد من أهم المواضيع التي ينبغي طرحها ومعالجتها في العصر الحاضر، نظرًا لما يترتب عليه من فروع كثيرة وجوانب مهمة في النواحي النظرية والتطبيقية، وهذا ما يبرز لنا الأهمية الكبيرة لهذا البحث، بالإضافة إلى الإقبال الشديد على هذا الباب، وكثرة المتناولين له بمشارب مختلفة، ووجهات نظر متباينة، الأمر الذي يحتاج إلى ضبط هذا الموضوع لئلا يخبط فيه خبط عشواء، من خلال تأصيله عند الأئمة القدماء وبما أن موضوع هذا الملتقى المبارك يتمحور حول "الوسطية في الغرب الإسلامي وأثرها في نشر الإسلام في إفريقيا وأوربا"، ومعلوم أن الغرب الإسلامي لم يكن بمعزل عن التحولات الفكرية التي تعرفها بلدان المشرق، فقد خرج منه أئمة أعلام لازال العلماء في جميع الأنحاء يثنون على علومهم ومؤلفاتهم، ويعتنون بها، ويرجعون إليها كثيراً، وهؤلاء الأئمة الأعلام لم يكونوا مجرد نقلة، بل هم نقاد بارعون، وعلماء محققون، في مختلف العلوم والفنون، ومن هؤلاء الأئمة الأخيار والعلماء الأفذاذ الذين ذاع صيتهم وجادت قريحتهم بخدمة الإسلام والمسلمين: الإمام الجهبذ أبو إسحاق الشاطبي –رحمه الله–، فكان موضوع مداخلتي متمركزاً حول "منهج الإمام الشاطبي –رحمه الله– في تفعيل مبدأ الوسطية"، وكان سبب اختياري لهذا الموضوع أن الوسطية تعتبر مقصدا من المقاصد العامة المتعلقة بمنهج التشريع، وأن الإمام الشاطبي هو مؤسس علم المقاصد، فكان ولابد من بيان العلاقة الرابطة بين منهج الإمام الشاطبي المقاصدي وبين مبدأ الوسطية، وذلك من خلال بيان مفهوم الوسطية وضوابطها وتأصيلها الشرعي، وبيان منهجه في تفعيل هذا المبدأ.

ومن هنا كان و لابد من الإجابة على التساؤلات الآتية:

– ما هي نظرة الإمام الشاطبي –رحمه الله– إلى مبدأ الوسطية ، فيما يخص مفهومها، وضوابطها، وتأصيلها الشرعي؟.

– وما هو منهج الإمام الشاطبي العام؟ وما هي العلاقة التي تربط بين منهجه وبين مبدأ الوسطية؟.

– وكيف فَعَّل –رحمه الله– مبدأ الوسطية في ظل ظروف بيئته الصعبة التي أحاطها التقليد والتعصب المذهبي، وغشيها الجمود والتصلب الفكري.

هذا ما سأحاول الإجابة عنه في طيات هذا المقال بتوفيق من الله وتسديده.

أما بالنسبة للدراسات السابقة: لم أجد حسب علمي وحدود معرفتي من تناول موضوع " منهج الإمام الشاطبي –رحمه الله– في تفعيل مبدأ الوسطية"، إلا أنه توجد دراسات لها علاقة بالموضوع منها:

–الدكتور يوسف القرضاوي: فقه الوسطية الإسلامية والتجديد "معالم ومنارات"

---

[1]– الشاطبي: الموافقات 2/ 163.

[2] –سورة البقرة: الآية 143.

– وللدكتور يوسف القرضاوي أيضا: دراسة في فقه مقاصد الشريعة بين المقاصد الكلية والنصوص الجزئية.

– حمادي العبيدي: الشاطبي ومقاصد الشريعة، دار قتيبة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان، ط1، 1412ه-1992م.

أما بالنسبة للمنهج المتبع؛ فقد اتبعت في هذا البحث المنهج الاستقرائي بما فيه من تتبعٍ لجزئيات هذا الموضوع، وإحصائها، واستقصائها، إلى جانب المنهج التحليلي القائم على تحليل وتمحيص مضمون ومحتويات البحث، للوقوف على غاياته و أبعاده،و تحليل صوره،كما اعتمدت على المنهج الاستنباطي، وذلك من خلال استنباط ثبوت مبدأ التيسير ورفع الحرج الذي يعتبر كنتيجة حتمية لمبدأ الوسطية ، بناء على منهج نقديٍّ علميٍّ، من أجل تحقيق الغايات المرجوة، والمقاصد العامة المبتغاة.

خطة البحث: وقد جعلت بحثي هذا في: مقدمة، وستة مباحث، وخاتمة متضمنة لأهم النتائج والتوصيات؛ وبيانها كالآتي:

مقدمة.

المبحث الأول: نبذة عن حياة الإمام الشاطبي –رحمه الله-.

المبحث الثاني: مفهوم الوسطية.

المبحث الثالث: ضوابط الوسطية.

المبحث الرابع : خصائص الوسطية.

المبحث الخامس: التأصيل الشرعي للوسطية.

المبحث السادس: تجليات تفعيل مبدأ الوسطية عند الإمام الشاطبي.

خاتمة: وتشتمل على :النتائج، و التوصيات.

وقد سلكت في هذا البحث المنهج العلمي في كتابة البحوث العلمية؛ فقمت بترقيم الآيات القرآنية، وتخريج الأحاديث النبوية، و توثيق أقوال العلماء من مصادرها المعتبرة جهد الإمكان.

المبحث الأول: نبذة عن حياة الإمام الشاطبي.

اسم الإمام أبي إسحاق الشاطبي ونسبه: هو الإمام إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي[3]الغرناطي، أبو إسحاق، الشهير بالشاطبي[4].

---

[3]– لخم قبيلة عربية، أصلها من القحطانية من اليمن، ومنهم كانت ملوك العرب في الجاهلية، ومنهم من دخل بلاد الأندلس، ثم كان لبقاياهم ملك بإشبيلية من الأندلس، وهي دولة ابن عباد. انظر: صفة جزيرة العرب ص(271)، ولسان العرب (12/ 261/لخم(، ومعجم قبائل العرب (3/ 1011، 1012) (5/ 365).

[4]– انظر نيل الابتهاج ص (46)، وشجرة النور الزكية ص (231)، وإيضاح المكنون (2/127)، والأعلام (1/75)، ومعجم المؤلفين (1/118)، ودرة الحجال (1/182)،وفهرس الفهارس (1/191)، وبرنامج المجاري (1/116)، وأعلام المغرب العربي .(1/132)

مولده ونشأته: لم تُسلط – كتب التراجم المعتمدة – الأضواء على مكان ولادته، ولا عن تاريخها، ولا عن كيفيّة نشأته.

إلا أن الذي يبدو أن أصله كان من مدينة شَاطِبَة[5]، وأنه ولد في مدينة غرناطة[6]، قبيل سنة 720هـ[7].

أما عن نشأته: فقد نشأ على حبّ العلم، ومتابعة الدرس منذ نعومة أظفاره، حدثنا هو بذلك في مقدمة كتابه الاعتصام، نقتطف من ذلك قوله: "لم أزل منذ فُتق للفهم عقلي، ووجه شطر العلم طلبي، أنظر في عقلياته، وشرعياته، وأصوله، وفروعه، لم أقتصر منه على علم دون علم، ولا أفردت عن أنواعه نوعًا دون آخر حسبما اقتضاه الزمان والإمكان...[8].

بعض شيوخه: تتلمذ الإمام أبو إسحاق الشاطبي على جماعة من العلماء، ذكر منهم بعض المعاصرين أربعة وعشرين شيخًا[9]، أكتفي بذكر من ذكرهم العلامة أحمد بابا التنبكتي، حيث قال: "أخذ العربية وغيرها عن أئمة منهم الإمام المفتوح عليه في فنها ابن الفخار البيري[10].والإمام الشريف رئيس العلوم اللسانية أبو القاسم السبتي[11]، والإمام المحقق أعلم أهل وقته الشريف أبو عبد الله التلمساني[12] والإمام علاّمة وقته بإجماع أبو عبد الله المقري[13] وقطب الدائرة الإمام الشهير أبو سعيد ابن لب[14]، والإمام الجليل ابن مرزوق الجد[15]، والعلاّمة المحقّق المدرس الأصولي أبو علي منصور بن محمد الزاوي[16]، والعالم المفسر المؤلف أبو عبد الله البلنسي[17] والعلامة الخطيب أبو جعفر الشقوري[18] والعالم الحافظ الفقيه أبو العباس القباب[19]، والمفتي المحدّث أبو عبد الله الحفّار[20]، وغيرهم"[21].

---

[5]– مدينة في شرقي الأندلس، وشرقي قرطبة، خرج منها خلق من الفضلاء. انظر: معجم البلدان (3/ 351).

[6]– غَرْنَاطة: بفتح الأول وسكون الثاني، ومعنى غرناطة رمَّانة بلسان عجم الأندلس، وهي أقدم مدن كورة البيرة من أعمال الأندلس، وأعظمها وأحسنها وأحصنها. انظر معجم البلدان (4/ 221).

[7] –انظر: فتاوى الإمام الشاطبي، ص (32).

[8] –الاعتصام (1/ 31).

[9]– انظر دارسة الدكتور أبي الأجفان لكتاب الإفادات والإنشادات، ص (20 – 26).

[10] –انظر ترجمته في نفح الطيب (5/ 355)، وبغية الوعاة (1/ 174).

[11] –انظر ترجمته في نيل الابتهاج، ص (47)، وبغية الوعاة (1/ 39)، ونفح الطيب (5/ 189).

[12] –انظر: نيل الابتهاج ص (255).

[13] –انظر ترجمته في برنامج المجاري، ص (119 – 121)، والإحاطة (2/ 191)، ونفح الطيب (5/ 203).

[14] –انظر ترجمته في بغية الوعاة (2/ 243)، ونفح الطيب (5/ 509).

[15]– انظر ترجمته في الإحاطة (3/ 103).

[16] –انظر ترجمته في برنامج المجاري، ص (119).

[17] –انظر ترجمته في الإحاطة (3/ 38)، وبغية الوعاة (1/ 191).

[18] –انظر ترجمته في برنامج المجاري ص (125).

[19] –انظر ترجمته في نيل الابتهاج، ص (72).

[20] –انظر ترجمته في برنامج المجاري، ص (104)، ونفح الطيب (2/ 694 – 5/ 513، 429).

بعض تلاميذه: قال أحمد بابا التنبكتي: "أخذ عنه جماعة من الأئمة كالإمامين العلامتين أبي يحيى بن عاصم الشهير[22]، وأخيه القاضي المؤلف أبي بكر بن عاصم[23]، والشيخ أبي عبد الله البياني[24]، وغيرهم"[25].

مذهب الإمام أبي إسحاق الشاطبي: هو مالكي المذهب، يدل على ذلك أن علماء المالكية أدخلوه في عداد طبقاتهم[26]، ولم ينازعهم في ذلك أحد من أهل المذاهب الفقهية الأخرى، ووصفه المعتنون بالتراجم عمومًا بأنه مالكي المذهب[27].

ثناء العلماء على الإمام أبي إسحاق الشاطبي: لم تسلط الأضواء على حياة الإمام أبي إسحاق الشاطبي وفضائله ومع ذلك فلا تخلو هذه الأمة ممن يقول الحق فمن ذلك: قول تلميذه أبي عبد الله المجاري: "الشيخ الإمام العلامة الشهير، نسيج وحده، وفريد عصره، أبو إسحاق إبراهيم بن موسى اللخمي الشاطبي"[28].

وقال عنه أحمد بابا التنبكتي: "الإمام العلامة، المحقق القدوة، الحافظ الجليل المجتهد، كان أصوليا مفسرًا، فقيها محدثا، لغويا بيانيا، نظارًا ثبتا، ورعا صالحا زاهدًا، سنيا إماما مطلقا، بحاثا مدققا جدليا، بارعا في العلوم، من أفراد العلماء المحققين الأثبات، وأكابر الأئمة المتقنين الثقات..."[29].

وقد تابعهما في الثناء على الإمام أبي إسحاق الشاطبي محمد مخلوف[30]،وغيره من المتأخرين[31].

آثار الإمام أبي إسحاق الشاطبي العلمية: ألف الإمام أبو إسحاق الشاطبي تآليف نفيسة في موضوعها ومضمونها "اشتملت على تحرير للقواعد، وتحقيقات لمهمات الفوائد"[32]، إلا أن منها ما هو مطبوع، ومنها ما ليس بمطبوع، وبيانها كالآتي:

أولاً: المطبوع:

-الإفادات والإنشادات، وفيه طرف وتحف وملح أدبية وإنشاءات.

-كتاب الاعتصام في أهل البدع والضلالات: وهو كتاب في غاية الإجادة، تناول فيه الإمام أبو إسحاق الشاطبي موضوع البدع، وبحثها بحثا علميا، وسبرها بمعيار الأصول الشرعية، بحيث أن من جاء بعد الإمام

---

[21] – نيل الابتهاج، ص (47، 48).

[22] –انظر ترجمته في نفح الطيب (148/6).

[23] –انظر ترجمته في نفح الطيب (19/5).

[24] –انظر ترجمته في نيل الابتهاج، ص (308).

[25] – نيل الابتهاج ص (49).

[26] –انظر: نيل الابتهاج، ص (46)، وشجرة النور، ص (231).

[27] – انظر: الأعلام (75/1)، ومعجم المؤلفين (118/1).

[28] –برنامج المجاري، ص (116).

[29] –نيل الابتهاج، ص (46، 47).

[30] –انظر: شجرة النور الزكية، ص (231).

[31] –انظر: الأعلام (75/1)، ومعجم المؤلفين (118/1)، وفهرس الفهارس (191/1)

[32] –انظر: نيل الابتهاج، ص (48).

أبي إسحاق الشاطبي فألف في رد البدع فهو عيال على كتاب الاعتصام والكتاب لم يتمه مؤلفه، وقد طبع عدّة طبعات.

-كتاب الموافقات في أصول الشريعة: وهو كتاب معدود في أصول الفقه، وكان قد سماه "عنوان التعريف بأسرار التكليف"؛ لأجل ما أُودع فيه من الأسرار التكليفية المتعلقة بهذه الشريعة الحنيفيّة[33]. لكن بعض شيوخ الشاطبي أخبره برؤيا جعلت الإمام الشاطبي يسمي هذا الكتاب باسم "الموافقات"[34]. وهو كتاب عظيم القدر جليل النفع، أثنى عليه المتقدمون من العلماء، والمتأخرون، وكُتبت حوله الدراسات العلمية.

-كتاب المقاصد الشافية في شرح خلاصة الكافية، (وهو شرح الألفية، يعني ألفية ابن مالك).(طبع في 10 مجلدات.

– وله فتاوى كثيرة:ذكر ذلك أبو الأجفان في مقدمة كتاب الإفادات والإنشادات، وكذلك في آخره[35]، وقد أوردها غيره من المتقدمين[36]، وجمعها أبو الأجفان باسم "فتاوى الإمام الشاطبي"[37].

ثانياً: غير المطبوعة: ولم تحظ مجموعة أخرى من كتابات الإمام الشاطبي بالطباعة، وهذه الكتب هي :

-شرح جليل على الخلاصة في النحو ، في أربعة أجزاء.

-كتاب المجالس، وهو شرح لكتاب البيوع من صحيح الإمام البخاري.

-عنوان الاتفاق في علم الاشتقاق، قيل أنه أتلف في حياة الشاطبي واستفاد منه أهل عصره فقط.

-كتاب أصول النحو، قيل أنه أتلف في حياة الشاطبي

-ذكر الإمام الشاطبي في آخر كتابه الاعتصام عن عزمه تأليف كتاب يعالج فيه التصوف وأسماه مذهب أهل التصوف، ولكنا لا ندري هل قام بتأليفه أم لا[38].

و مما يلاحظ على آثار الإمام الشاطبي و مؤلفاته يتبين لنا الرصيد العلمي و المعرفي الذي جمعه الإمام رغم قلة تآليفه.

وفاة الإمام أبي إسحاق الشاطبي رحمه الله تعالى: قال تلميذه أبو عبد الله المجاري: وتوفي رحمه الله في شعبان عام تسعين وسبعمائة[39]. وكذلك قال أحمد بابا، إلا أنه زاد يوم الثلاثاء[40]، وتبعهما على ذكر سنة وفاته

---

[33] -انظر: الموافقات (10/1).

[34] -انظر المصدر نفسه (10/1، 11).

[35]- انظر نيل الابتهاج، ص.(178 - 176) (52 - 46).

[36] -انظر المعيار (26/1، 29، 278، 327) (292/2، 468، 511، 512 (140/4-205).

[37] -والكتاب يقع في (256) صفحة وطبع بمطبعة الكواكب بتونس.

[38]- موقع ويكيبيديا الموسوعة الحرة: https://ar.wikipedia.org

[39] -برنامج المجاري، ص (122).

[40] -انظر نيل الابتهاج، ص (49).

كل من جاء بعدهما ممن رأيت[41].

المبحث الثاني: مفهوم الوسطية:

المطلب الأول: مفهوم الوسطية في اللغة:

الوسطية مصدر صناعي، يدل على التَّمكن في الوسط، وورد لفظ الوَسَط عن اللُّغويين بإطلاقات قد تتعدَّد في الدلالة، وتتَّحد في الغاية.

– قال ابن فارس: "الواو، والسين، والطاء بناءٌ صحيح، يدلُّ على العدل والنَّصَف، وأعدل الشيء، أوسطه ووسطه"[42]؛ فالوسط هنا يراد به العدل.

– وقال الجوهري: "وَسَطتُ القوم أسِطهم وَسْطًا وَسِطَة: توسطْتُهم، وفلان وَسِيط في قومه، إذا كان أوسطَهم نسبًا، وأرفعَهم محلاً، والوسطُ من كلِّ شيء: أعدله، ويُقال أيضًا: شيء وسَط؛ أي: بين الجيد والرَّديء، وواسطةُ القِلادة: الجوهر الذي في وسطها، وهو أجودها"[43].

فأطلَقَ الوسط على ما كان بين طرفين مُتقابلين: أحدهما ممدوح، والآخر مذموم، كالجيد والرديء، وأطلق الوَسَط على الأجود بين جنسه، كوسط القلادة.

– وقال الراغب الأصفهاني في مفرداته: "الوَسَطُ: ما له طرفان مُتساوِيَا القدر، ويقال ذلك في الكمية المتَّصلة؛ كالجسم الواحد، إذا قلت: وَسَطُه صُلب، وضَربَ وسَطَ رأسه، بفتح السين، ووَسْط بالسكون، يقال في الكمية المُنفصلة، كشيء يَفصل بين جسمين، نحو: وَسْطُ القوم كذا، والوَسَط تارة يقال فيما له طَرَفان مذمومان؛ يقال: "هذا أوسطهم حَسَبًا"، إذا كان في واسطة قوْمِه، وأرفَعَهم محلاً؛ كالجود الذي هو بين الإسراف والبخل، فيستعمل استعمال القصد المصون عن الإفراط والتَّفْريط، فيمدح به نحو: السواء، والعدل، والنَّصَفَة، ومنه قوله – تعالى –: "وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا"[44] ؛ وعلى ذلك: "قال أوسطهم"[45]؛ فتَحَصَّل من كلامه معنى آخر، وهو الواقع بين طرفين مُتساويي القَدْر، مع الإلماح إلى التَّفريق بين الوسَط والوَسْط.

المطلب الثاني: مفهوم الوسطية في الاصطلاح:

تعددت تعريفات الوسطيَّة في الاصطلاح؛ نظرا لسعة مفهومها وشموله، فعرفها علماء كل فن بما يناسب فَنَّهُم، بالإضافة إلى أن الاختلاف الواقع فرضته دلالةُ السياق حينًا، واختلافُ الأهواء أحيانًا أخرى؛ وهذه بعض التعاريف الواردة في بيان معنى الوسطيَّة في الاصطلاح المستقاة من المصادر الأصليَّة، والمستعينة بالدلالة اللُّغوية:

يقول الشيخ عبد الله بن عبد المحسن التركي: "إِنَّ الْمَفْهُومَ الْإِسْلَامِيَّ لِلْوَسَطِيَّةِ لا يلغِي الطَّرَفَيْنِ لِيَتَكَوَّنَ

---

[41] –انظر شجرة النور الزكية، ص (231)، والأعلام (75/1)، ومعجم المؤلفين (118/1)، وأعلام المغرب العربي (134/1).

[42] –ابن فارس: معجم مقاييس اللغة، مادة (وسط)، 108/6.

[43] – الجوهري:الصحاح، مادة (وسط).1167/3.

[44] – سورة البقرة:الآية 143.

[45] – الراغب الأصبهاني: مفردات ألفاظ القرآن الكريم، مادة: (وسط).

مِنْهُمَا حدٌّ ثَالِثٌ، وَإِنَّمَا يَبْقَى فِيهِ الطَّرَفَانِ مُتَجَاوِرَيْنِ، وَيَحْتَفِظُ كُلُّ طرفٍ بوجُودِهِ، وذلك مما يتفق مع الطبيعة البشرية التي ينتقل فيها الإنسان من حال إلى حال، ويختار بين المفترقات أو المتناقضات، بحسب دوافعه النفسية وحاجات الزمان أو المكان وظروفها. وَلَعَلَّ مِنْ خَصَائِصِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ الَّتِي نَزَلَ بِهَا الْوَحْيُ الْإِلَهِيُّ، القرآن الكريم، أنها في معنى الوسطية، لا تنحو منحى مادياً في اعتبار الوسط موقعاً بين طرفين، أو درجة بين الأعلى والأدنى. بل يظهر في معنى الوسطية اللغوية أنها الفضل والعدل والأجود، كما يظهر فيها أيضاً بدلالة اللغة أنها الوسط بين طرفين، وبذلك يكون اللفظ جامعاً لمعان عديدة، ما يسهم في فهم شامل لمعنى الوسطية الإسلامية، وفي بيان مجالات تطبيقها، بحيث تصبح الأمة الوسط في الآية الكريمة: "وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا"[46]؛ هي أمة الخير، والعدل، والشهادة، والتوسط بين الأمور"[47].

فالمعنى الاصطلاحي يدور على الاعتدال، وتجنُّب الغلو والتقصير؛ قال ابن القيم: "ما أمر الله – عزَّ وجل – بأمر إلا وللشيطان فيه نزغتان: إمَّا تقصير وتفريط، وإما إفراط وغلو، فلا يبالي بما ظفر من العبد من الخطيئتين"[48] وسيتضح – إنْ شاء الله – من خلال استقراء بعض نُصُوص الكتاب والسنة: أنَّ الوسطيَّة هي الدين كله، بحيث يسوغ أنْ نقول: "الإسلام هو الوسطيَّة"، ما دامت الوسطيَّة لا تخرج عن العدل، والخيار، والاستقامة، والاتزان، والقصد، وهل هذه إلاَّ المبادئ التي جاء الإسلام من أجلها، قال ابن القيم: "والدين كلُّه بين هذين الطرفين – التقصير والمجاوزة – بل الإسلام قصد بين الملل، والسنة قصد بين البدع، ودين الله بين الغالي فيه، والجافي عنه"[49]

وربما كان الاعتراف بصحة مفهوم الوسطية، وتأهيله للتأسيس والصياغة في العلم والعمل، يعد حقيقة مسلمة لا جدال حولها، بما أن "الوسطية هي الميزان والموازنة والتوازن بين الثبات والتغيير بين الحركة والسكون" [50]

الوسطية تعني الخيرية والاستقامة، والله يقول في تفسير الخيرية:"كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر"[51]، ويقول في تفسير الاستقامة:" واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم"[52].

وعليه فإن مفهوم الوسطية في الاصطلاح لا يخرج عن مقتضى اللغة، وقد استخدم القرآن لفظ الوسط معبراً فيه عن إحدى خصائص هذه الأمة، وإحدى قواعد منهجيتها، التي تسعى لإقامة العدل، ودفع الظلم،

---

[46] – سورة البقرة:الآية 143.

[47] – نقلاً عن تسجيل صوتي لمُحَاضرة للشيخ عبد الله بن عبد المحسن التركي بعنوان: (الأمة الوسط والمنهاج النبوي في الدعوة إلى الله)، وقد ألقيت في جامعة الملك فهد للبترول والمعادن في الظهران في 17/ 6/ 1418 هـ.رابط المادة : http://iswy.co/e12lun

[48]–ابن القيم: إغاثة اللهفان، 116/1.

[49]– ابن القيم: كتاب الرُّوح، دار الفكر، 1992م. ص 250.

[50] – سيد أحمد عثمان : التحليل الأخلاقي للمسئولية الاجتماعية ، الأنجلو المصرية ، القاهرة ،1996.

[51]– سورة آل عمران: الآية 110.

[52]–سورة الشورى: الآية 15.

وترسيخ القيم والمبادئ، بالوسائل المناسبة و الملائمة والمجدية.

المطلب الثالث: مفهوم الوسطية عند الإمام الشاطبي:

يقرر الإمام الشاطبي –رحمه الله – مفهوم الوسطية فيقول: "الشريعة جارية في التكليف بمقتضاها على الطريق الوسط الأعدل، الآخذ من الطرفين بقسط لا ميل فيه، الداخل تحت كسب العبد من غير مشقة عليه ولا انحلال، بل هو تكليف جارٍ على موازنة تقتضي في جميع المكلفين غاية الاعتدال كتكاليف الصّلاة والصّيام والحجّ والجهاد والزّكاة وغير ذلك..... فإن كان التشريع لأجل انحراف المكلف، أو وجود مظنة انحرافه عن الوسط إلى أحد الطرفين، كان التشريع رادا إلى الوسط الأعدل، لكن على وجه يميل فيه إلى الجانب الآخر ليحصل الاعتدال فيه.."[53].

وبعد صفحات يشرح هذا المفهوم ويؤكّده قائلا:" فإذا نظرت في كلية شرعية فتأملها تجدها حاملة على التوسط، فإن رأيت ميلاً إلى جهة طرف من الأطراف، فذلك في مقابلة واقع أو متوقع في الطرف الآخر، فطرف التشديد – وعامة ما يكون في التخويف والترهيب والزجر – يؤتى به في مقابلة من غلب عليه الانحلال في الدين، وطرف التخفيف – وعامة ما يكون في الترجية والترغيب والترخيص – يؤتى به في مقابلة من غلب عليه الحرج في التشديد، فإذا لم يكن هذا ولا ذاك رأيت التوسط لائحاً، ومسلك الاعتدال واضحاً، وهو الأصل الذي يرجع إليه، والمعقل الذي يلجأ إليه .

وعلى هذا إذا رأيت في النقل من المتبرعين في الدين من مال عن التوسط، فاعلم أن ذلك مراعاة منه لطرف واقع أو متوقع في الجهة الأخرى، وعليه يجري النظر في الورع والزهد، وأشباههما، وما قابلهما"[54].

وعليه، فالتوسُّط عند الإمام الشاطبي –رحمه الله – داخل تحت أصْلٍ من أصول الدين، أو كليَّة من كليَّات الشرع؛ بحيث لا يَخرج عن جوهر الإسلام ورُوحه، ومبادئ الشريعة الإسلامية.

(أمَّا الميل إلى أحد جانبي الزيادة أو النقص في حكم شرعي، فحالة استثنائية اقْتَضَتها الضرورة، وفرَضَتها الحاجة، لها أسباب تزول بزوالها؛ فكل إفراط أو غُلو، أو تفريط أو تساهُل في فَهْم الإسلام – تشريعًا وتكليفًا، سلوكًا واعتقادًا ومعاملة – خطأٌ كبير في هذا الفهم، وله بالغ الأثر على الشريعة الإسلاميَّة، وليس ذلك من الإسلام في شيء)[55].

المبحث الثالث: ضوابط الوسطية:

تتجلى ضوابط الوسطية فيما يلي:

–كون الحُكم بالتوسُّط داخلاً تحت أصْلٍ من أصول الدين، أو كليَّة من كليَّات الشرع؛ بحيث لا يَخرج عن جوهر الإسلام ورُوحه، ومبادئ الشريعة ، يقول الإمام الشاطبي –رحمه الله–: " : فإذا نظرت في كلية شرعية

---

[53] – الشاطبي: الموافقات 2/ 124.

[54] – الشاطبي: الموافقات 2/ 128.

[55] – حنافي جواد: تسوية الأفهام لفقه الوسطية والاعتدال، http://www.alukah.net.

فتأملها تجدها حاملة على التوسط "[56].

-كون الحكم بالتوسُّط لا يُعارض ما هو معلوم من الدين بالضرورة، وإلاَّ كان خارجًا عن ثوابت الدين الكبرى. "الشريعة جارية في التكليف بمقتضاها على الطريق الوسط الأعدل، الآخذ من الطرفين بقسط لا ميل فيه...فإن كان التشريع لأجل انحراف المكلف، أو وجود مظنة انحرافه عن الوسط إلى أحد الطرفين، كان التشريع رادا إلى الوسط الأعدل، لكن على وجه يميل فيه إلى الجانب الآخر ليحصل الاعتدال فيه.."[57].

-كون الحُكم بالتوسُّط مما لَمْ يقف منه الإسلام موقفَ الزيادة أو النُّقصان، أو مصلحة مُعتبرة شرعًا- أي ما كان من الثوابت القطعيات التي لايدخلها اجتهاد-؛ كالتشديد في إثبات الزنا، والتساهل في إثبات ما لا يَطَّلِع عليه إلاَّ النساء من الأمور بشهادة امرأة واحدة، ويتطلَّب في الأوَّل أربعة شهود عدول، اتَّفقوا على كلِّ شيء من الزنا.

-كون التوسُّط المجتهَد فيه من غير المنصوص عليه بصريح المنقول أو المعقول، وإلاَّ حكَمنا بالنص بلا الْتِفَات إلى قضية التوسط التي تُراعَى من الشارع دائمًا بالضرورة.

-كون التوسُّط لا يؤدي إلى مَفسدة أكبر وأخطر.

-كون التوسط لا يؤدي إلى تتبُّع الرُّخَص اليسيرة في المذاهب.

وقد ذكَر الإمام الشاطبي -رحمه الله- جُملة من المفاسد في اتِّباع رُخَص المذاهب، "كالانسلاخ من الدين بتَرْك اتِّباع الدليل، وكالاستهانة بالدين؛ إذ يصير بهذا الاعتبار سيَّالاً لا يَنضبط، وكتَرْك ما هو معلوم إلى ما ليس بمعلوم؛ لأن المذاهب الخارجة عن مذهب مالك في هذه الأمصار مجهولة، وكانْخِرام قانون السياسة الشرعيَّة، بتَرْك الانضباط إلى أمرٍ معروف، وكإفضائه إلى القول بتلفيق المذاهب على وجه يَخرق إجماعهم " .[58]

كما أنه من ضوابط الوسطية: أنها منهج يفرق بين ظنيات الاجتهاد وقطعيات النصوص، وبين موارد الاجتهاد في فروع المسائل ولزوم الاتباع في أصولها، ويراعي تحقيق المناط للنصوص الشرعية .

فيستخلص من هذه الضوابط :أنَّ التوسُّط يعرف بشيئين: الشرع في أغلب الأحيان، عندما يكون الأمر شرعيًّا، وبالعقل والعوائد وما يشَهد به جِلُّ العُقلاء، كما في الإسراف والإقتار في النفقات، إن كان من العادات، لكن تَجدر الإشارة إلى أنَّ الأصلَ الأصيل في التوسُّط هو الشرع، والعقل في الإسلام إطاره الشرع، وأُمَّهات المعقولات فيه ورَدَت في أمهات جامعة شاملة للمصالح، يقول الإمام الشاطبي -رحمه الله:"والتوسُّط يُعْرَف بالشرع، وقد يُعرَف بالعوائد وما يَشهد به معظم العُقلاء، كما في الإسراف والإقتار في النفقات".[59]

وبهذا تَنقطع ذريعة المتذرِّعين الذين يؤسِّسون لكذبهم من خلال قاعدة التوسُّط والاعتدال؛ ليقولوا في الدين ما تُمليه عليه أهواؤهم وشهواتهم[60].

---

[56]- الشاطبي: الموافقات 2/128.

[57] - الشاطبي: الموافقات 2/124.

[58] انظر: الشاطبي: الموافقات، 4/ 121 - 122.

[59] - الشاطبي: الموافقات، 2/ 139 - 143.

[60] - انظر: حنافي جواد: : تسوية الأفهام لفقه الوسطية والاعتدال، http://www.alukah.net

المبحث الرابع: خصائص الوسطية:

تتميز الوسطية بخصائص معينة، بحيث لا يصح إطلاق مصطلح (الوسطية) على أمر إلا إذا توفرت فيه هذه الخصائص، وبيانها كالآتي:[61]

1-الخيرية: وهي تحقيق الإيمان الشامل، يحوطه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

2- الاستقامة:وهي لزوم المنهج المستقيم بلا انحراف، فالوسطية لا تعني التنازل أو التميع أبداً.

3- البينية: وذلك واضح في كل أبواب الدين، فالصراط المستقيم بين صراطي المغضوب عليهم والضالين.

4- اليسر، ورفع الحرج: وهي سمة لازمة للوسطية.

5- العدل والحكمة: وقد فسر النبي صلى الله عليه وسلم الوسط بالعدل[62]، وذلك هو معنى الخيار؛ وذلك لأن خيار الناس: عدولهم، وقد قال الله تعالى: "إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ"[63] .

وهكذا، فإن خصائص الوسطية هذه تجعلها سمة ثابتة وبارزة في كل باب من أبواب الإسلام،في الاعتقاد، والتشريع، والتكليف، والعبادة، والشهادة والحكم،والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والجهاد في سبيل الله، والأخلاق والمعاملة، وكسب المال وإنفاقه، ومطالب النفس وشهواتها[64].

أما بالنسبة لخصائص المدرسة الوسطية التي تبناها الإمام الشاطبي –رحمه الله- والتي تعد الوسط بين مدرستين إحداهما اختارت الاقتصار على ما تفيده ظواهر الألفاظ الواردة في النصوص الشرعية، ويعد الاقتصار على ذلك أمرًا متعينًا؛ لأن فيه الأمن من البعد عن مرادات النصوص قدر الإمكان، وعن تحكيم العقل فيما لا سلطة له فيه.

و الأخرى غلّبت جانب التعليل وإعمال العقل في النصوص؛ بحجة أن الشريعة أحكامها معقولة المعنى، فلا بد من إظهار هذه المعاني والعلل، وبناء الأحكام عليها، ومنهم لا سيما من المتأخرين من يغلو في هذا الجانب وينادي بأنه يكفي أن تكون الأحكام الفقهية منطوية تحت معاني عامة تدل عليها النصوص إجمالاً، وقد أدى التمادي في هذا الاتجاه إلى بعد كثير من الفتاوى والاجتهادات عن مقتضيات النصوص.

و بينهما المدرسة الوسطية التي اختارت سبيل الاقتصاد والتوسط، فأخذت بظواهر النصوص مع اعتبار المعاني، من خلال الربط بين النصوص الجزئية والمقاصد الكلية، وبالتالي فإن هذا المنهج لا يؤدي إلى تعطيل مدلولات النصوص أو نقضها، بل بالقدر الذي يوسع دلالات النص بحسب القواعد العلمية المرسومة، وهم في ذلك لم يجمدوا على ظواهر الألفاظ؛ فيعطلوا المعاني، ولم يغرقوا في إعمال المعاني ويطرحوا النصوص[65].

---

[61]- عبد الحكيم بن محمد بلال: الوسطية من أبرز خصائص هذه الأمة، مجلة البيان، http://www.islamdoor.com

[62]- أخرجه النسائي، وانظر صحيح سنن النسائي، ح/2863.

[63]- سورة النحل: الآية 90.

[64] – عبد الحكيم بن محمد بلال: الوسطية من أبرز خصائص هذه الأمة، مجلة البيان، http://www.islamdoor.com

[65] –انظر:دراسة في فقه مقاصد الشريعة بين المقاصد الكلية والنصوص الجزئية، للدكتور يوسف القرضاوي، طبع دار الشروق، الطبعة الأولى، 2006م.

يقول الإمام الشاطبي رحمه الله:" وإن كانت المذاهب كلها طرقًا إلى الله، ولكن الترجيح فيها لابد منه؛ لأنه أبعد من اتباع الهوى كما تقدم، وأقرب إلى تحري قصد الشارع في مسائل الاجتهاد؛ فقد قالوا في مذهب داود لما وقف مع الظاهر مطلقًا: إنه بدعة حدثت بعد المائتين، وقالوا في مذهب أصحاب الرأي: لا يكاد المغرق في القياس إلا يفارق السنة، فإذا كان ثمة رأي بين هذين؛ فهو أولى بالاتباع، والتعيين في هذا المذهب موكول إلى أهله، والله أعلم"[66].

وعليه فقد تميزت هذه المدرسة بالخصائص الآتية:

1-الإيمان بحكمة الشريعة وتضمنها مصالح الخلق.

2- ربط نصوص الشريعة وأحكامها بعضها ببعض.

3-النظرة المعتدلة لكل أمور الدين والدنيا.

4-وصل النصوص بواقع الحياة وواقع العصر.

5-تبني خط التيسير.

6-الانفتاح على العالم والحوار والتسامح.

وتتمثل مرتكزات المدرسة الوسطية فيما يلي :

1-البحث عن مقصد النص قبل إصدار الحكم.

2-فهم النص في ضوء أسبابه وملابساته.

3-التمييز بين المقاصد الثابتة والوسائل المتغيرة.

4-الملاءمة بين الثوابت والمتغيرات.

5-التمييز في الالتفات إلى المعاني بين العبادات والمعاملات[67].

المبحث الخامس: التأصيل الشرعي للوسطية:

بعد عرض ضوابط الوسطية يتضح أنها غير خاضعة لأهواء العابثين بأحكام الشريعة، بل إن جذورها متأصلة ونابتة في النصوص الشرعيَّة، بل لا وسطيَّة ولا اعتدال خارج حِصن النصوص الشرعيَّة، وهذا بيان تأصيلها:

أولا: من الكتاب:

فقد نص القرآن الكريم صراحة على أن أمة الإسلام هي الأمة الوسط، وذلك في قوله تعالى: "وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا"[68]، وهذا ما يدلُّ على أنَّ صفة التوسُّط صفة جوهرية في الدين وأصلٌ من أصوله، وهناك نصوص كثيرة تدلُّ على هذا؛ منها:

---

[66] – الشاطبي: الموافقات 280/5.

[67]– راجع:دراسة في فقه مقاصد الشريعة بين المقاصد الكلية والنصوص الجزئية، للدكتور يوسف القرضاوي، طبع دار الشروق، الطبعة الأولى، 2006م.

[68]– سورة البقرة: الآية 143.

-قوله تعالى:" وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ " [69].

-وقول تعالى أيضا " مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ "[70].

-وقوله عزَّ وجلّ: "يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ "[71].

-وقوله سبحانه: "لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا"[72]

-وقوله عز وجل: "يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا"[73].

-وقوله جل شأنه:"وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ"[74] .

ووجه الدلالة: أن وصف الله سبحانه وتعالى الدين بأنه يسر ، وبأن الله ما جعل علينا فيه من حرج، وأن الله يريد أن يخفف عنا، كل هذا يدل على أن الغلو في الدين غير مطلوب، بل ليس هو من الدين، وأن التوسط هو سمة الدين ومنهاجه، والوسطية بين طرفين: تشدد وتساهل،وهل يؤخذ عند الاختلاف بأخف القولين أو بأثقلهما ؟[75]، فذهب بعض الناس إلى الأخذ بأخف القولين وأيسرهما استدلالا بهذه الأدلة، وذهب آخرون إلى الأخذ بالأشد، والذي يظهر أن المراد بهذه النصوص هو أن الدين يسر، أي: ما جاء وثبت في الشرع فهو يسر، وليس المراد أن اليسر هو الدي ، وأن سماحة الشريعة ويسرها إنما جاءت مقيدة بما هو جار على أصولها، والقول باتباع الأيسر مطلقا إنما هو اتباع هوى النفس وما تشتهيه، دون الرجوع إلى الدليل، وذلك ينافي أصول الشريعة[76]، وهو مؤد إلى إسقاط التكاليف جملة؛ لأن التكاليف كلها فيها ما يشق على النفس، فإذا كانت المشقة حيث لحقت في التكليف تقتضي الرفع بهذه الأدلة؛ لزم ذلك في جميع التكاليف، فلم يبق للعبد تكليف، وهذا محال، فما أدى إليه مثله، فإن رفع الشريعة مع فرض وضعها محال[77].

ثانيا: من السنة:

-روى البخاري في صحيحه عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يُدْعى نوح يوم القيامة، فيقول: لبيك وسعديك يا رب، فيقول: هل بلغت؟ فيقول: نعم. فيقال لأمته: هل بلغكم؟ فيقولون: ما أتانا من نذير. فيقول: من يشهد لك؟ فيقول: محمد وأمته. فتشهدون أنه قد بلغ: ﴿ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾[78]، فذلك قوله جل ذكره: ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى

---

[69]- سورة الحج: الآية 78.

[70]- سورة المائدة: الآية 6.

[71]- سورة البقرة: الآية 185.

[72]- سورة البقرة: الآية 286.

[73]- سورة النساء: الآية 28.

[74] - سورة الأعراف: 157.

[75]- الشاطبي: الموافقات 4 / 148 .

[76] - المصدر نفسه 4 / 131- 133- 134.

[77] - المصدر نفسه 4 / 193 ، وانظر منه 4 / 134- 141.

[78]- سورة البقرة: الآية 143.

النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾[79]، والوسط: العدل"[80].

– حديث ابن عباس –رضي الله عنهما– أنّ النبي صل الله عليه وسلم قال: "إياكم و الغلو في الدين، فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو في الدين" [81].

فإنّ الخروج عن الوسطية يؤدي حتما إلى الوقوع في أمر خطير، ألا وهو الغلو أو ما يعرف بالتطرف، وقد حذر النبي صلى الله عليه وسلم من هذا الأمر الذي فتك ولا يزال يفتك بالأمم التي تحيد عن الوسط.

تأصيل الإمام الشاطبي لمبدأ الوسطية:

إن الوسطية تعد من أهم مقاصد الشريعة الإسلامية، فهي من المقاصد العامة المتعلقة بمنهج التشريع، لأن الشريعة في كل تكاليفها ضد الغلوّ والشّطط والإسراف في كل شيء، كما أنها ضد التّفريط والانحلال والتسيّب في كل شيء، وإنما تقوم على الاعتدال والعدل في كل أمر، بحيث تتجنب طرفي الإفراط والتفريط المذمومين، كما تُعَدُّ من الخصائص التي تمثل السمات العامة للشريعة التي ينبغي على المجتهد مراعاتها في استنباط الأحكام وتنزيلها على الواقع، لذلك كانت الوسطية محط اهتمام الفقهاء "المقاصديين" الذين يعدّ الإمام الشاطبي –رحمه الله– أحد أقطابهم الذين سطع نجمهم في السماء، بل يعد صاحب الجهد الأكبر والأوفر في تثبيت مقاصد الشريعة، والعناية بشرحها وتأصيلها وتفصيلها، حتى أصبحت على يديه علماً مستقلاً له أصوله ونظرياته، ومناهجه ومقولاته، فقد عنى بالوسطية والحديث عنها في غير موضع من كتابه الموافقات[82].

وهذه بعض النصوص الدالة على تأصيله –رحمه الله– لمبدأ الوسطية:

–إنّ وسطية الإسلام و سماحته لا تؤخذ من العقول البشرية لكن تؤخذ من النصوص الشرعية، يقول الإمام الشاطبيّ –رحمه الله– : "والتوسط يُعرفُ بالشرع وقد يُعرَف بالعوائد وما يَشهد به معظم العُقلاء، كما في الإسراف والإقتار في النفقات"[83].

وقال –رحمه الله– أيضا: "فإن كان التشريع لأجل انحراف المكلف أو وجود مظنة انحرافه عن الوسط إلى أحد الطرفين، كان التشريع ردًا إلى الوسط الأعدل"[84].

"فإن حياة الناس لا تستقيم إلا بشريعة تبين للناس المصالح والمفاسد، وتخرجهم من دواعي الهوى والضلال إلى دواعي الحق والفلاح، ليحققوا معنى الدينونة الحقة لله رب العالمين، حتى يكونوا عبادًا لله

---

[79]–سورة البقرة: الآية143.

[80]– رواه البخاري في صحيحه، في كتاب: تفسير القرآن، باب: "وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا" البقرة/ 143، رقم الحديث(4217).

[81]– رواه أحمد النسائي و ابن ماجة.

[82] – القرضاوي: فقه الوسطية الإسلامية والتجديد "معالم ومنارات"، الحلقة [8[

[83] – الموافقات: الشاطبي، ، ص 139 – 143.

[84] – المصدر نفسه.

اختيارًا كما هم عباد له اضطرارًا"[85].

ويقول الإمام الشاطبي رحمه الله أيضا:"والوسط معظم الشريعة وأم الكتاب، ومن تأمل موارد الأحكام بالاستقراء التام عرف ذلك»[86].

هذه بعض أقوال الإمام الشاطبي رحمه الله المؤصلة لمبدأ الوسطية ، ونجد غيرها من النصوص الدالة على ذلك في طيات هذا البحث –بإذن الله تعالى-.

المبحث السادس: تجليات تفعيل مبدأ الوسطية عند الإمام الشاطبي .

المطلب الأول: الجمود الفكري السائد في بيئة الإمام الشاطبي:

شهد الإمام الشّاطبي –رحمه الله- اضطرابات اجتماعيّة ودينيّة عديدة في عصره، وعايش دعوات دينيّة وسياسيّة مختلفة، كرّست اختلاطا مذهبيّا سلبيّا، وتدهورا أخلاقيّا مريعا، وكانت قوّة إيمانه وهمّته العقليّة وتدبّره لواقع عصره، والبحث عن تجديد الفكر وإصلاح السّلوك، عوامل إيجابيّة، كما لاحظ الشّيخ محمّد الفاضل بن عاشور (1909م-1970م) عصمَتْه من الوقوع في اليأس، أو الانخراط في التصوّف والزّهد والهروب-كما فعل كثير من معاصريه- فأقبل على فحص الواقع الدّيني وتمحيصه مقتنعا بأنّ حقيقة الدّين لا يمكن أن تكون إلاّ واحدة غير مختلفة، وأنّ الدّعوات الابتداعيّة التي نفخت فيها أبواق العصبيّات،هي التي أحدثت في الدّين ما يبدو بين صوره من تخالف واضطراب[87].

ونتيجة اكتشاف الشّاطبي أنّ المشكلة في التّفريعات والتّجزئة، ولأنّ دين الله واحد، كان ولابدّ من إرجاع الكثرة إلى الوحدة، فاهتمّ بتأصيل أصول علم الشّريعة والسموّ عن التّفاريع المختلفة إلى القواعد الكليّة التي ينبغي أن تكون مراجع للفقه لا تحيد عنه[88].

لذلك تميز منهج المدرسة الوسطية بضرورة النظر في مقاصد الشريعة عند التعامل مع النص الشرعي، إذ لا يمكن أن نعزل تعاملنا مع النصوص الشرعية من خلال فقه المقاصد، عن الضوابط المنهجية التي يجب مراعاتها عند التعامل مع النصوص الشرعية بعمومها، فهناك جملة من المبادئ والأسس المنهجيَّة الكليَّة المستوحاة من الخصائص العامَّة التي يختصُّ بها النصُّ الشَّرْعِيّ، والتي يجب على المتعامل معه مراعاتها والالتزام بها؛ حفظاً له من التمحّل والاعتساف وسوء التأويل والإساءة إلى المعنى المراد من النص، وتكاد تلك المبادئ المنهجيَّة أن تنحصر في خمسة ضوابط أساسيَّة، وهي: ضابط التحقق من صحة نسبة النصِّ إلى مصدره، وضابط التجرد والتزام الموضوعيَّة عند التعامل مع النصِّ، وضابط اتِّباع النظرة الموضوعيَّة التكامليَّة، وضابط الوقوف على مناسبات النزول والورود، وضابط الإبقاء على مراتب النُّصُوص كما وصلتنا[89].

---

[85] – انظر: الشاطبي: الموافقات 2/289.

[86] – الشاطبي: الموافقات 5/278.

[87] – محمّد الفاضل بن عاشور،أعلام الفكر الإسلامي في تاريخ المغرب العربي، مكتبة النّجاح، تونس،(د.ت) ص73.

[88] – المرجع نفسه ، ص75.

[89] انظر: الموقع الشخصي للدكتور قطب مصطفى سانو، أستاذ مشارك في قسم الفقه وأصوله- الجامعة الإسلاميَّة العالميَّة في ماليزيا،

كما أكّد الإمام الشاطبي على ضرورة الجمع بين أحكام الدّين المتناهية، ومستجدّات الحياة التي لا تنتهي، فكان كتاب الموافقات بمثابة التصوير الدقيق لما تقتضيه تلك الأحكام، من استجلاب المصالح، وتفصيل طرق الملاءَمَة بين حقيقة الإسلام الخالدة، وصور الحياة المختلفة والمتعاقبة على الدّوام[90].

وهذا الذي سعى إليه الإمام الشاطبي رحمه الله خير برهان على تفعيله لمبدأ الوسطية، الذي يعد عاملا أساسيا في تحقيق وحدة الأمة وعصمتها من الزلل، وسلاحا فعّالا في محاربة دعوات العصبية والتطرف.

المطلب الثاني:سبب تأليف كتاب الموافقات وعلاقته بمبدأ الوسطية:

يعد كتاب الموافقات من أعظم كتب الشاطبي وأشهرها، خصص الجزء الثاني منه بأكمله لفن المقاصد، وسبب تدوينه هو نقد المنهج الحرفي الذي كان سائداً في عصره، وأنه توجه به إلى أهل البصيرة من العلماء الذين فهموا الدين جيداً وتركوا التقليد والتعصب، أما الذين اكتفوا من العلم بظاهره واكتفوا من العلم بالحفظ والتقليد، فإن هذا الكتاب يكون وبالا عليهم ينقلب ما فيه من حكمة فتنة لهم.

ومن خلال التأمل في مقدمة الشاطبي لكتابه " الموافقات " يمكن رد أهداف الكتاب إلى هدفين أساسيين هما: التعريف بأسرار الشريعة، والتوفيق بين طريقتي ابن القاسم وأبي حنيفة في التفريع الفقهي.

أما الهدف الأول: وهو التعريف بأسرار الشريعة فلأجله سمى كتابه لأول وهلة " عنوان التعريف بأسرار التكليف " وقد صرح بذلك بقوله: " ولأجل ما أودع فيه من الأسرار التكليفية المتعلقة بهذه الشريعة الحنيفية سميته: " بعنوان التعريف بأسرار التكليف"[91].

أما الهدف الثاني: وهو التوفيق بين طريقتي مالك وأبي حنيفة[92] فمن أجله انتقل الشاطبي إلى تسمية الكتاب بالموافقات، قال- رحمه الله-:" ثم انتقلت عن هذه السيماء لسند غريب، يقضي العجب منه الفطن الأريب، وحاصله أني لقيت يوما بعض الشيوخ الذين أحللتهم مني محل الإفادة، وجعلت مجالسهم العلمية محطا للرحل ومناخا للوفادة، وقد شرعت في ترتيب الكتاب وتصنيفه، ونابذت الشواغل دون تهذيبه وتأليفه، فقال لي: رأيتك البارحة في النوم، وفي يدك كتاب ألفته، فسألتك عنه، فأخبرتني أنه(كتاب الموافقات) قال: فكنت أسألك عن معنى هذه التسمية الظريفة، فتخبرني أنك وفقت به بين مذهبي ابن القاسم وأبي حنيفة "[93] وأيّد الشاطبي هذه الرؤيا بقوله: " قد أصبتم الغرض بسهم من الرؤيا مصيب وأخذتم من المبشرات النبوية بجزء

بحث (ضوابط منهجية للتعامل مع النص الشرعي). رابط المادة http://iswy.co/e12lun :

[90] – المرجع السابق، ص7

[91] الشاطبي: الموافقات 24/1.

[92]– ذكر الكتور حمادي العبيدي أن الشاطبي لاقى معارضة شديدة من معاصريه و.كان هدفه التوفيق بين مذهبي مالك وأبي حنيفة، ولكن أهل الأندلس لا يقبلون مذهبا غير المذهب المالكي، فخشي الفتنة على نفسه فتجنب أن يسوي بين مالك وأبي حنيفة، فرفع مالكا وجعل أبا حنيفة في درجة ابن القاسم. انظر: الدكتور حمادي العبيدي الشاطبي ومقاصد الشريعة/104، دار قتيبة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط1، 1412هـ1992م

[93]– الشاطبي: الموافقات الموافقات، 24/1.

صالح ونصيب، فإني شرعت في تأليف هذه المعاني عازما على تأسيس تلك المباني"[94].

والتوفيق بين طريقتي مالك وأبي حنيفة معناه التوفيق بين طريقتي أهل الحجاز وأهل العراق، أو بين أهل الأثر وأهل الفقه أو بين النقل والعقل، وهذا التوفيق بين الطريقتين لم يكن على أساس الهوى أو اتباع أيسر الأمور، بل كان مبنيا على مبدأ الوسطية في تثبيت الأعدل الأخير وفق قواعد الشرع.

المطلب الثالث: منهج الإمام الشاطبي وعلاقته بمبدأ الوسطية:

الفرع الأول: منهج الإمام الشاطبي:

في القرن الثامن الهجريّ كتب الإمام الشّاطبي –رحمه الله– كتاب الموافقات، وحاول أن يعيد الفقه إلى الواقع، بالاهتمام بالكليّات في الأصول، ولئن تكلّم كثيرا عن المقاصد، فإنّه لم يرد عنه تعريف لها، فالشّريعة في نظره ترجع إلى حفظ المقاصد، التي يكون بها صلاح الدّين والدّنيا: «وَالشَّرِيعَةُ الْمُبَارَكَةُ الْمُحَمَّدِيَّةُ مَنَزَّلَةٌ عَلَى هَذَا الْوَجْهِ، وَلِذَلِكَ كَانَتْ محفوظة في أصولها وفروعها؛ كما قال تَعَالَى:﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[95] لِأَنَّهَا تَرْجِعُ إِلَى حِفْظِ الْمَقَاصِدِ التي بها يكون صلاح الدّارين»[96].

قال محقق مقدمة البيضاوي "ولقد انفرد الشاطبي (790 هـ) بطريقة في التأليف لم يسبق لها في كتابه الموافقات حيث اهتم بالأصول التي اعتبرها الشارع في التشريع"[97].

و عليه فقد تميز الإمام الشاطبي بنظرةٍ خاصةٍ لم يعتبرها كثيرٌ من الأصوليين والفقهاء، وتمثّل ذلك باعتبار عدة أمورٍ :

1–من جهة النصوص: وذلك بإثبات الكلية والجزئية، وإثبات الاستقراء كدليل لاثبات الحكم بمجموع الصور لا بعضها، وربط أطراف المسائل النقلية بقرينتها العقلية، واستنباط الأحكام منها.

2–من جهة المعاني:أخذ المصالح وضبطها بضوابط سليمة، ثم قسَّمها، ثم نظر إلى علاقتها بالتعليل.

3–من جهة المصادر وضوابط الاستدلال :والتي تحتوي على عدة أمور مهمةٍ، مما نلمس فيه الكثير من المسائل التي تُؤثر في علم أصول الفقه.[98]

و من خلاله دشن الإمام الشاطبي في كتابه الجليل "الموافقات" نسقًا مفاهيميًّا جديدًا سعى من خلاله إلى المزاوجة بين العقل والنقل، وقد أشار الشاطبي إلى هذه السمة في منهجه بقوله: "لم أزل أقيد أوابده[99] وأضم شوارده، تفاصيل وجملا(...) مبينا أصولها النقلية بأطراف من القضايا العقلية"[100] .

---

[94] –المصدر نفسه.

[95] –سورة الحِجْر:الآية 9.

[96] –الشّاطبي، الموافقات.107/1.

[97] – مقدمة تحقيق كتاب منهاج الوصول للبيضاوي، مصطفى شيخ مصطفى، طبعة مؤسسة الرسالة، ص 9.

[98] –https://ar.wikipedia.org

[99] –الأوابد الوحش. انظر ابن فارس: مجمل اللغة، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، د.ط، 1414هـ1994م، ص 41.

[100] – الشاطبي: الموافقات: 23/1.

بالإضافة إلى اعتماده على الاستقراءات الكلية دون اقتصار على الجزئيات كما عبر الشاطبي عن ذلك بقوله: "معتمدا على الاستقراءات الكلية غير مقتصر على الأفراد الجزئية"[101].

وعليه فإن المنهج الذي انتهجه الإمام الشاطبي-رحمه الله- نسجه بطريقة محكمة تسمو بمبادئ الشريعة من التقليد والتعصب والجمود وتجسد مبدأ الوسطية بدقة ووضوح.

المطلب الثاني: علاقة ارتباط منهج الشاطبي بمبدأ الوسطية:

إن مبدأ الوسطية في منهج الإمام الشاطبي رحمه الله فسره الشيخ محمد فاضل بن عاشور بقوله: "إن الشاطبي لما شاهد المجتمع الإسلامي من انحلال نهضت في نفسه همة الإصلاح، لكنه بقي حائراً في اختيار المنهج الذي يتوخاه في إصلاحه، وكانت حركة بين مذهبين: مذهب يفصل الفكر عن العمل، ومذهب يتجه إلى الباطن ويعرض عن الفكر والواقع معا، فاتجه إلى منهج يجمع بين النظر والعمل ويصلح الظاهر والباطن، فكانت الشريعة بمقاصدها منطلقه إلى الإصلاح، إصلاح ميولات النفس وجنوحها إلى ما لا يحل، وإرسالها بمقدار الاعتدال فيما يحل.

والسماحة واليسر ورفع الحرج هي المقصد الأعظم للشريعة الإسلامية، يؤخذ ذلك من كثرة النصوص الواردة بهذا المعنى، والسماحة مرتبطة بالفطرة الإنسانية، وهي الطبع الذي خلق الله عليه الإنسان، والفطرة تأبى الشدة والعنت، وتجنح إلى اليسر والرفق، والدين الحق، دين الفطرة، هو التزام بمنهج الوسطية التي لا تقوم مصلحة الناس إلا عليها، والخروج عنها إلى أحد الطرفين من الشدة واللين يعد خروجا عن قصد الشارع، فالمعتبر في هذا المعنى أن الشريعة تسير على طريق وسط لا انحراف فيه ولا ميل ولا إفراط ولا تفريط، وذلك هو الصراط المستقيم الذي جاء به الإسلام.

ولكن كيف يحقق الشارع الحكيم مصالح الخلق بهذه الوسطية؟

يشبه الشاطبي المفتي بالطبيب الماهر الذي يعطي الغذاء ابتداء على ما يقتضيه الاعتدال في توافق مزاج المغتذي مع مزاج الغذاء، ويخبر من سأله عن بعض المأكولات التي يجهلها المغتذي؛ أهو غذاء أم سم، أم غير ذلك؟ فإذا أصابته علة بانحراف بعض الأخلاط، قابله في معالجته على مقتضى انحرافه في الجانب الآخر، ليرجع إلى الاعتدال وهو المزاج الأصلي والصحة المطلوبة، وهذا غاية الرفق، وغاية الإحسان والإنعام من الله سبحانه[102].

وعليه فإن تطبيق الأحكام الشرعية دون مراعاة للمقاصد يؤدي إلى الجمود والتحجر وعدم القابلية للتطبيق في الظروف المختلفة، كما أن مراعاة المقاصد دون الالتفات إلى الأحكام الشرعية يؤدي إلى المرونة التي تجعل المجال مفتوحا دون ضوابط.

كما أن العلاقة التي تربط بين منهج الإمام الشاطبي ومبدأ الوسطية تتجلى بوضوح في الكتاب الثالث في

---

101 – المصدر نفسه.

102 – محمّد الفاضل بن عاشور، أعلام الفكر الإسلامي في تاريخ المغرب العربي، مكتبة النّجاح، تونس،(د.ت) ص73.

الموافقات، وهو كتاب الأدلة، فإذا نظرنا فيه وجدناه قد افتتحه بالحديث عن موضع الكليات والجزئيات، وطريقة اعتبارهما في الشريعة وبناء كلّ منهما على الآخر، من حيث لا يستغنى بالكليّ عن الجزئ ولا بالجزئ عن الكليّ، و هذا ما يبين العلاقة الوطيدة بين منهجه ومبدأ الوسطية الذي يؤكد وجوب :المقارنة بين الكليّ والجزئيّ، والموازنة بين المقاصد والفروع، والربط بين النصوص ومعتبرات المصالح في الفتاوى والآراء.

وقد ذكر الشاطبي خمسة أوجه تدل على أن الأدلة الشرعية لا تنافي قضايا العقول بل تدل على الارتباط الوثيق والتكامل المحكم والتداخل المنسجم الذي يجسد أسمى معاني الوسطية:

"الأول: إن الأدلة السمعية لو نافت قضايا العقول لم تكن أدلة للعباد، لا على الأحكام الإلهية، ولا على الأحكام التكليفية، وقد علم باتفاق العقلاء أن الأدلة الشرعية إنما نصبت لتتلقاها عقول المكلفين ,فيعملوا بمقتضاها، فلو نافتها لما تلقتها فضلاً عن أن تعمل بمقتضاها.

الثاني :إنه لو فرض أن الأدلة الشرعية منافية لقضايا العقول ومعارضة لها لكان الكفار أول من ردَّها به – وقد علم بالاتفاق أنهم ما وجدوا ما يقدحون به مع شدَّة حرصهم على الطعن في هذا الدين، وإنما لجأوا إلى سب الرسول صلى الله عليه وسلم، واتهامه بأنه ساحر أو مجنون ونحو ذلك – فلما لم يوجد منهم ما يقدح في دلالة الأدلة الشرعية، دلَّ على أنهم عقلوها، وعرفوا جريانها على مقتضى العقول.

الثالث: إنه لو فرض وقوع التنافي والتعارض بين الأدلة الشرعية وقضايا العقول للزم سقوط التكليف عن جميع الناس – وبيان ذلك: أن الاستقراء دل على أن التكليف يعتبر فيه تمكن العقل من التصديق بالأدلة الصحيحة، ويوضحه أن الشرع لم يلزم تكليف المعتوه والصبي والنائم – لعدم وجود مقتضى التصديق – وهو العقل – ويساويه كذلك لو كانت الأدلة غير صحيحة، فلزوم تكليف العاقل بها كلزوم تكليف غير العاقل بما لا يصدقه أشد من تكليف من لا يتمكن من الحكم بالصدق أو عدمه.

الرابع: إن الأدلة الشرعية لو نافت قضايا العقول لكان الأمر بالتصديق بها تكليفاً بما لا يطاق، إذ العقل لا يصدق ما لم يكن صدقاً وما لا يتصوره، فلما كان ذلك باطلاً لزم ألا تخالف الأدلة الشرعية قضايا العقول.

الخامس: إن الاستقراء دل على أن الأدلة الشرعية جارية على مقتضى العقول بحيث تصدقها العقول الراجحة وتنقاد لها"[103].

المطلب الثالث: مدى تفعيل الإمام الشاطبي لمبدأ الوسطية:

يعود الفساد الخلقي و الاجتماعي في المجتمع الأندلسي عامة إلى فساد الحكم السياسي ، وضعف الوازع الديني، وانتشار البدع نتيجة لجهل أكثر الناس بحقيقة الدين، فإذا نهض من يدعو الناس إلى التدين الصحيح، اتهم بالخروج عن الدين، وفي هذه البيئة المريضة ظهر الشاطبي فحمل لواء دعوة إصلاحية جعل قوامها الرجوع إلى الكتاب والسنة وسيرة السلف الصالح[104].

---

[103] –انظر: الشاطبي: الموافقات(3/27–28).

[104] – محمد الفاضل بن عاشور: أعلام الفكر الإسلامي، ص 73.

ونتيجة لما وصل إليه الإسلام في بلاد الأندلس من انحصار رأى الشاطبي أن عصره هو نهاية الإسلام، كما أخبر بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم:" بدأ الإسلام غريبا وسيعود غريبا كما بدأ، فطوبى للغرباء"[105]، ثم يذكر عللا أخرى يراها عوامل ساعدت على تعفن الحياة الاجتماعية في عصره، منها شيوع الجهل، والتعصب المذهبي، والغلو في تعظيم غير الله[106].

والإمام الشاطبي يُحمّل تبعة تردي الأوضاع الاجتماعية إلى علماء وفقهاء مدينة غرناطة التي لم يبق للإسلام من ملجأ بالأندلس غيرها. حتى أنهم أعلنوا جهارا "أن كل مسألة ثبت لأحد العلماء فيها القول بالجواز-شذّ عن الجماعة أم لا- فالمسألة جائزة"[107].

كما صنف الشاطبي العلماء في زمانه أصنافا عدة، منهم: الجهلة الذين يضلون الناس ويفتونهم بغير علم، ومنهم أدعياء علم وليسوا من العلم في شيء[108]، ومنهم متعصبون لمذهب مالك يرون من على غير مذهبهم ضالا، فيقول رحمه الله:" وكان هؤلاء المقلدة قد صمموا على مذهب مالك، بحيث أنكرو ما عداه، وهذا تحكيم الرجال على الحق، والغلو في محبة المذهب، وعين الإنصاف ترى أن الجميع أئمة فضلاء"[109].

وقد وقع بين الشاطبي وهؤلاء الأئمة المقلدون مصادمات عنيفة، فكان إذا أفتى بالجواز في مسألة أفتوا هم فيها بالمنع، وإذا أفتى بالمنع أفتوا هم بالجواز.

ومن الأمثلة الدالة على حزم الشاطبي واتباعه لمبدأ الوسطية فتواه في مسألة الضرائب، إذ استفتت حكومة غرناطة الفقهاء في جواز فرض ضرائب زائدة على أهل المملكة لمواجهة التعبئة للقتال، فامتنعوا من ذلك، بينما خالف الشاطبي إجماعهم وأفتى بالجواز قائلا:" إنا إذا قررنا إماما مطاعا، مفتقرا إلى تكثير الجنود لسد الثغور، وحماية الملك المتسع الأقطار، وخلا بيت المال، وارتفعت حاجات الجند إلى ما لا يكفيهم، فللإمام إذا كان عدلا، أن يوظف على الأغنياء ما يراه كافيا لهم في الحال، إلى أن يظهر مال بيت المال، ثم إليه النظر في توظيف ذلك على الغلات والثمار، وغير ذلك كي لا يؤدي تخصيص الناس به إلى إيحاش القلوب، وذلك يقع قليلا من كثير بحيث لا يجحف بأحد ويحصل المقصود"[110].

هكذا تمسك الشاطبي بمبدأ الوسطية في فتاويه رغم ما لقيه من تأليب شديد من قِبَلِ معارضيه.

المطلب الرابع: أثر الوسطية التي اعتمدها الشاطبي في نشر الإسلام:

يُجمع أهل العلم أن الإمام الشاطبي أحد علماء غرناطة الذين تجاوزت شهرتهم بلاد الأندلس إلى أنحاء كثيرة، وكان العلماء من تلاميذه الذين ساروا على نهجه هم الذين بدأوا بالكتابة عنه والتنويه بمكانته العلمية

---

[105] – رواه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة، والنسائي عن ابن مسعود.

[106] – الشاطبي: الاعتصام، 258/1.

[107] –المصدر نفسه 354/2.

[108] –المصدر نفسه 287/2.

[109] – المصدر السابق 348/2.

[110] – المصدر نفسه 121/2.

والواقع أن تلاميذ الشاطبي هم الذين كان لهم الفضل في نشر آرائه وفتاويه التي خدمت الإسلام والمسلمين، كما أن تلاميذه لم يقتصروا على أن يتجهوا اتجاهه في العلوم الشرعية، بل حملوا آراءه في تجديد الدين، وإصلاح المجتمع الإسلامي، ونشروا تلك الآراء في ربوع الأندلس، ونالهم من التعسف والظلم ما ناله، فقد آمنوا برسالة أستاذهم، ورأوا أن الدين أفسدته البدع، والتقليد، و العكوف على حفظ المختصرات، فبات أشكالا خاوية لا تحيي ضميرا، ولا تنهض بعقل، وأن المجتمع دبّ فيه الفساد نتيجة لانحلال السلطة، والصراع على الحكم، وغيبة الدين الصحيح.[111]

إن هؤلاء التلاميذ حسب رأي الفاضل ابن عاشور هم وارثون لروح الثقافة الإسلامية عن الشاطبي[112]،الأمر الذي ساعد على نشر الإسلام وتثبيت قواعده.

وعليه فإن الإمام الشاطبي رحمه الله- يعتبر أحد رموز الفكر الوسطي في التشريع الإسلامي خصوصاً وفي الثقافة الإسلامية عموماً، فهو الذي استطاع أن يخرج بالفكر التشريعي من الجمود والضمور إلى حيز الفعالية والوجود، باعتباره عاملا من عوامل النهضة، وسبيلاً من سبل التنظير الاجتماعي والحضاري، فقاوم بشدة التقليد مؤكداً على أهمية دور العقل في الاستنباط، واستطاع أن يبتكر منهجاً على درجة كبيرة من الإبداع والتجديد في النظر إلى الشريعة الإسلامية يقوم على مراعاة مقاصد الشرع والتوسط بين مباني الألفاظ ودلالاتها ومعانيها، فكان لزاماً على كل من يتصدر للفتوى أن يتحرر من الأحكام المسبقة وأن يتعامل مع النازلة بطريقة عقلية رشيدة توفق بين الدلالة اللفظية ومقاصد الشرع ومآلاته، وبمنهج وسطي معتدل، تلك هي رسالة الإمام الشاطبي في الاجتهاد والإفتاء[113].

الخاتمة:

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، فبعد الانتهاء من هذه الوقفة المتواضعة في بيان " منهج الإمام الشاطبي رحمه الله في تفعيل مبدأ الوسطية"، أجدني خاتمة إياه بأبرز النتائج والتوصيات:

أولاً: أهم النتائج التي توصلت إليها:

1- مفهوم الوسطية في الاصطلاح لا يخرج عن مقتضى اللغة، وقد استخدم القرآن لفظ الوسط معبراً فيه عن إحدى خصائص هذه الأمة، وإحدى قواعد منهجيتها، التي تسعى لإقامة العدل، ودفع الظلم، وترسيخ القيم والمبادئ، بالوسائل المناسبة و الملائمة والمجدية.

2- أن الوسطية عند الإمام الشاطبي –رحمه الله – تعتبر أصْلاً من أصول الدين، وكليَّة من كليَّات الشرع؛ بحيث لا تَخرج عن جوهر الإسلام ورُوحه، ومبادئ الشريعة الإسلامية.

3- أن الوسطية من أهم مقاصد الشريعة الإسلامية؛ فهي من المقاصد العامة المتعلقة بمنهج التشريع، لأن

---

[111] -الصعيدي: المجددون في الإسلام، ص307 وما بعدها.

[112] -انظر: أعلام الفكر الإسلامي في تاريخ المغرب العربي، ص77.

[113] - د. سالم بن نصيرة: الإمام الشاطبي يمثل نقلة نوعية في منهجية علم أصول الفقه والشريعة الإسلامية http://www.alittihad.ae

الشريعة في كل تكاليفها ضد الغلوّ والشّطط والإسراف في كل شيء .

4- أنَّ التوسُّط يعرف بشيئين: الشرع في أغلب الأحيان، عندما يكون الأمر شرعيًّا، وبالعقل والعوائد وما يشَهد به جِلُّ العُقلاء.

5- بيئة التعصب و الجمود التي عاشها الإمام الشاطبي هي التي دفعته إلى السعي لتفعيله لمبدأ الوسطية، الذي يعد عاملا أساسيا في تحقيق وحدة الأمة وعصمتها من الزلل، وسلاحا فعّالا في محاربة دعوات العصبية والتطرف.

6- أن سبب تأليف الإمام الشاطبي لكتاب الموافقات التوفيق بين طريقتي مالك وأبي حنيفة، معناه التوفيق بين طريقتي أهل الحجاز وأهل العراق، أوبين أهل الأثر وأهل الفقه أوبين النقل والعقل، وهذا التوفيق بين الطريقتين لم يكن على أساس الهوى أو اتباع أيسر الأمور، بل كان مبنيا على مبدأ الوسطية في تثبيت الأعدل الأخير وفق قواعد الشرع.

7-أن منهج الإمام الشاطبي المتمثل في :المقارنة بين الكليّ والجزئيّ، والموازنة بين المقاصد والفروع، والربط بين النصوص ومعتبرات المصالح في الفتاوى والآراء يجلي بوضوح العلاقة الوطيدة التي تربط بين **منهجه ومبدأ الوسطية.**

8-يعتبر الإمام الشاطبي رحمه الله أحد رموز الفكر الوسطي في التشريع الإسلامي خصوصاً وفي الثقافة الإسلامية عموماً، بإخراجه الفكر التشريعي من الجمود والضمور إلى حيز الفعالية والوجود.

ثانيا: التوصيات:

1-المزيد من بذل الجهود في تعميق الدراسات حول المبادئ العامة للتشريع الإسلامي الذي أصبحت **الحاجة إليه جدّ ملحة خصوصا في هذا العصر، فنحن أحوج ما نكون إلى النظرة المقصدية التي نتجاوز فيها الجزئيات إلى الكليات، والفرعيات إلى المقاصد والغايات، لأن هذا هو السبيل الأمثل لإصلاح مناهج التفكير.**

2-تجديد المنظومات التربوية ومناهج التدريس بالتركيز على الكليات لتبقى الأولى أصولا ثابتة، ومن ثَمَّ **الجزئيات لتنبني على أساس متين، وصرح رصين؛ من أجل تحقيق بناء حضاري راقٍ ونهضة علمية وعملية** بعيدة عن الأوهام الفكرية، يقودها جيل واعٍ يفقه واقعه الذي يربطه بالأصول والثوابت حتى لا يضيع في **مسالك التميع المرير.**

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه الطاهرين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.